ألحان السعانين والموروث النغمي العراقي

فائز سلمان ميناس*

مقدمة

إن التراث والموروث النغمي العراقي هما حصيلة تراكم حضاري انتجته المئات من الأجيال المتعاقبة في بلاد ما بين النهرين بتوافق تام مع كل ما آمنت به من قيم ومعتقدات، ومارسته من عادات وطقوس، فالموروث النغمي هو كل ما تداول من ألحان، لها رموزها ودلالاتها ومضامينها، فتكون ذات مضمون ديني (تمجيد الله تعالى)، أو ذات مضمون دنيوي، أي تخدم شتى الجوانب الاجتماعية، إلا انها أحياناً تتطابق سماتها الموسيقية في الجوانب الدينية والدنيوية (اللحن، الايقاع، الأداء) نتيجة تأثّر الواحد بالآخر[1].

ومن الطبيعي ان نجد علاقة وثيقة بين الألحان الكنسية القديمة والألحان المتداولة في البيئة التي نشأت فيها.

أحد السعانين

من المعروف أن يوم أحد السعانين هو من الأعياد الدينية الكبيرة، وتحتفل الكنيسة به من خلال مراسيم وطقوس خاصة، وأن من أهم ما يميز هذه المناسبة هو التراتيل الخاصة التي تُنشَد أثناء طواف خاص يشترك فيه المؤمنون، كبارًا وصغارًا، والتي تعبّر بكلماتها وألحانها عن الهتاف الذي انشدته الجموع يوم دخول

(*) فائز سلمان ميناس : بكالوريوس علوم موسيقية، أستاذ في كلية بابل الحبرية للفلسفة واللاهوت (بغداد).

(1) إقتبس المسيحيون في بلاد ما بين النهرين، ألحان صلواتهم وطقوس عبادتهم من البيئة التي ولدوا وعاشوا فيها حتى تبلورت شخصيتها، فظهرت بخصائصها ومميزاتها الجديدة.

يسوع مدينة اورشليم، قائلةً : " هوشعنا لإبن داود ! تبارك الآتي باسم الرَّب !... " (متى 9/21).

وقد تميزت الكنيسة الكلدانية بألحان أصيلة ورائعة ما زالت تُرتّل حتى يومنا هذا، توارثتها الأجيال منذ زمن ليس بالقصير، والبعض من هذه التراتيل تميّز بإيقاعاته الواضحة والمتداولة كثيرًا في الموروث النغمي العراقي، وهذا ما جعله ان يكون قريبًا من ذائقة جمع المؤمنين.

أود ان استعرض في هذا المقال بعض الأمثلة من هذه التراتيل، موضّحة بالتدوين الموسيقي، إذ إنّ عنصرَي الايقاع واللحن يشكلان قاسمًا مشتركًا بينها وبين ألحان الموروث النغمي العراقي[2].

أولاً : ترتيلة مطلعها (كلخون عمي قوش كيا) وتعني : (أيها الشعوب كلها صفّقي بالأيادي) (حلاجف بحمتا حمعه جفا)

إن لحن هذه الترتيلة مبني على ايقاع يسمى بـ (الجيورجينة) ووزنه 16/10 وهذا الإيقاع شائع الاستخدام كثيرًا في الأغاني العراقية، وخصوصًا البغدادية والموصلية وبعض الموشحات، وكذلك أغاني المقام العراقي وتسمى (البستة)، نضرب مثالاً على ذلك الأغنية المعروفة (كل لحظة أمر عليك).

وينفرد العراق بهذا الإيقاع دون غيره من الأقطار العربية، ويشير الرقم الأعلى 10 على احتواء الحقل الموسيقي (MESURE)[3]، أي الدورة الايقاعية الواحدة على عشر نقرات سريعة، ويعبّر هذا الإيقاع غالبًا عن الفرح والبهجة.

---

(2) هناك تقارب كبير بين الأشكال الموسيقية الدينية والدنيوية من حيث المقامية والأداء وهذه خاصية موجودة في التراث الموسيقي الشرقي والأختلاف هو في المضمون.

(3) الحقل الموسيقي (بالفرنسية MESURE)، هو الذي يحوي علامات موسيقية يكون مجموع ازمنتها متساويًا كما يحتوي على الأجزاء القوية والضعيفة للأنغام ويشار في التدوين الموسيقي بخطوط على المدرج الموسيقي.

اما التركيب النغمي لهذه الترتيلة، فالأبعـاد النغمية (INTERVAL)[4]، المكونة لهذا اللحن تشكل جنس (GENNES)[5]، العجم (كما يعرف في الموسيقى العربية).

التدوين الموسيقي للترتيلة (يُقرأ من اليسار إلى اليمين)
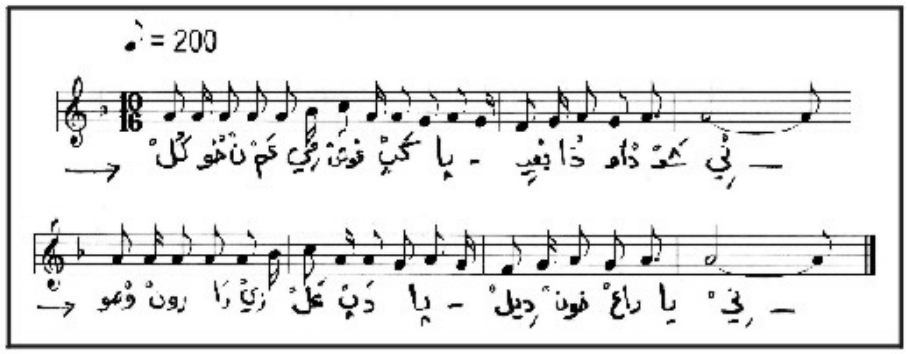
ثانيًا : ترتيلة مطلعها (تاو أو حبيوي بني معموذيثا) وتعني : (هلموا يا أحبائي أبناء المعموذية) (ⲧⲁⲓ ⲛⲁ ⲛⲓⲙⲉⲑⲙⲏⲧ ⲛⲉⲛ ⲛⲓⲙⲁⲙⲟⲩⲇⲓⲑⲁ)

إن ايقاع هذه الترتيلة هو الايقاع المخمّس 8/5، وهو ايقاع مركّب (أي يتركب من الوزن الثنائي والثلاثي)، والرقم الأعلى 5 يشير إلى احتواء الحقل الموسـيقي على خمس نقرات سريعة، وهو من الإيقاعات القديمة والنادر إستعمالها في يومنا، ونجدها في الأغاني القديمة، على سبيل المثال هناك أغنية شعبية يرددها الأطفال في الموصل (يالعايدة يالعايدة باب الكبير عمودكم فضة ودايركم حرير).

أما التركيب النغمي لهذه الترتيلة، فالأبعاد المكونة له جنس العجم أيضًا.

---

(4) البعد (INTERVAL)، هو المسافة التي تقع بين نغمتين مختلفتي الحدة والثقل ولا يكونان بعدا اذا كانا متشابهين أو متطابقين مثال (دو --- ري)، و (دو --- فا).

(5) الجنس ويسـمى بالانكليزية (GENNES)، يطلق هذا المصطلح على تكوين نغمي يتألف من ثلاث أو أربع نغمات.

التدوين الموسيقي للترتيلة :

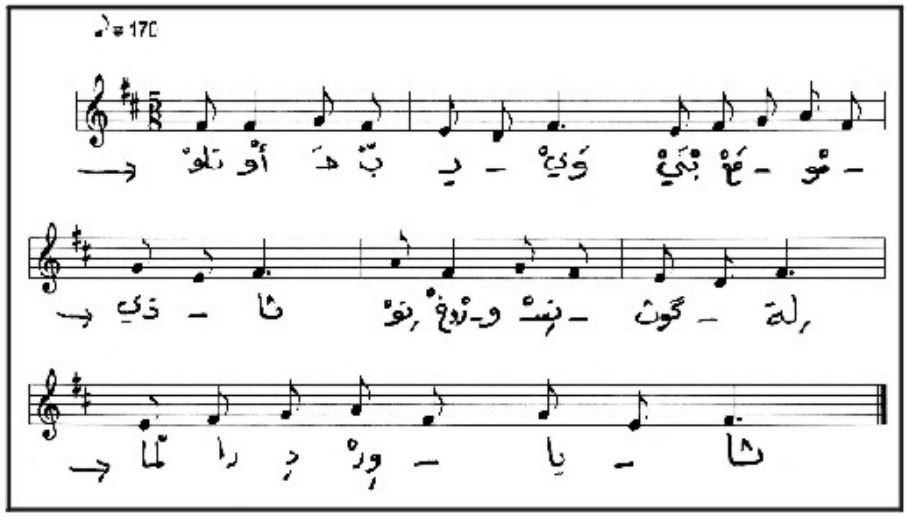

ثالثاً : ترتيلة مطلعها (بريخ برطاوا) وتعني : (مبارك أبن (الآب) الصالح)
(ܒܪܝܟ ܒܪ ܡܠܟܐ)

إعتمدت هذه الترتيلة على لحن من الطقس الكلداني وهو لحن لترتيلة (اوگانا) (ܐܘܓܢܐ) وتعني (يا البستاني) الذي ينشد في صباح أحد القيامة[6].

ويسير هذا اللحن بشكل واضح على وزن رباعي 4/4.

أما بالنسبة إلى التركيب النغمي، فالأبعاد المكونة لهذا اللحن تشكل جنس (البيات) المعروف في الموسيقى العربية، ومستخدم في الكثير من أغانينا التراثية، نذكر بعض الأمثلة " يم العيون السود ما اجوزن أنا " " وفراگهم بچاني " " دزّني واعرف مرامي " كما انه شائع الإستخدام في الألحان الكلدانية.

(6) القس يوحنان جولاغ (ترجمة)، يا بستاني، مجلة " **نجم المشرق** "، العدد 13 (1998) ص54-55.
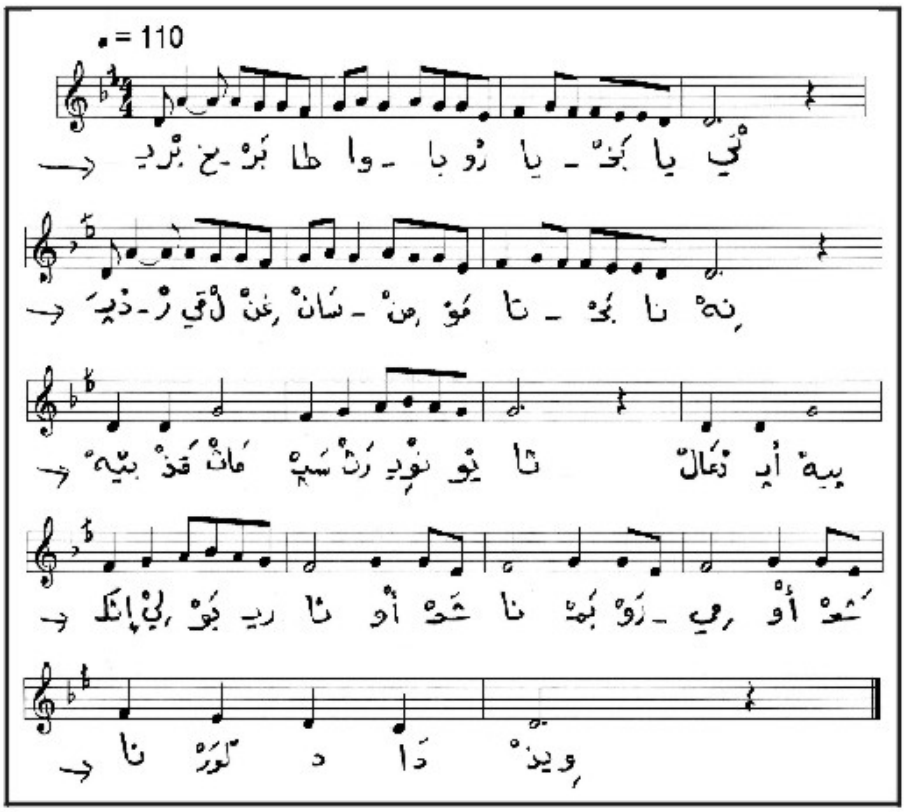
رابعًا : ألحان أخرى

وإلى جانب الألحان الكلدانية المذكورة هنالك ألحان أخرى باللغة العربية تتشد بهذه المناسبة أيضًا، وهي عريقة ومعروفة عند الناس، ويمكننا ان نعتبرها حديثة نسبيًا ونذكر على سبيل المثال الآتي : ترتيلة " شعب المسيح بهذا اليوم مسرور " وترتيلة " هوذا أتاك يا قدس البار ". إذ إن ألحانها عراقية من حيث الأسلوب والبناء اللحني.

علمت من الأب الفاضل بطرس حدّاد بأن لحن ترتيلة (هوذا أتاك) قد يكون منسوبًا إلى الموسيقار عثمان الموصلي، وذلك من خلال ملاحظته إلى احدى موشحاته، قُدّمت ضمن برنامج تلفازي إذ كانت مطابقة للّحن نفسه. فيا ترى من الذي اقتبس اللحن من الآخر ؟